

القَصَصُ الدِّينِي
الحلقة الثانية
قِصَصُ السَّيَرَةِ

خَاتِمَةُ
بَنَاتِ خَوَيْلِدَ

عبد الحميد جودة السحار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ .

(قرآن کریم)

سَبَّ مُحَمَّدٌ حَتَّى بَلَغَ الْخَامِسَةَ وَالْعَشْرِينَ ، وَقَدْ
 اشتهر أمره في مكة ، وعرف الناس فيه النزاهة ،
 وطهارة الذمة ، والعفة ، والأمانة ، فسموه
 «الأمين» . وفي ذات يوم كانت مكة تستعدُّ
 لخروج تجارة خديجة بنت خويلد ، وكانت خديجة
 من أشرف قريش ، ومن أغنيائها ؛ كانت تستأجر
 الرجال للخروج في تجارتها ، وتقرض التجار
 الأموال ليشاركوها في تجارتها ، وفي أرباحها ،
 حتى تضمن أن يخلصوا لها .

وفي ذلك اليوم قابل أبو طالب محمداً ، فقال له :

— أنا رجل لا مال لي ، وقد اشتدَّ الزمان ،

وأقبلت علينا سنون مُنكرة ، وليس لنا تجارة ، وهذه

قوافل قومك قد حضر خروجها إلى الشام ، وخديجةُ
بنتُ خويلد ترسل رجالا من قومك في قوافلها ،
فيتجرون لها في مالها ، ويصيبون منافع ، فلو جئتها
وعرضت نفسك عليها ، لأسرعت إليك ، وفضلتك
على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك .
فقال محمد :

- فلعلها أن ترسل إلى في ذلك .

فقال له عمُّه أبو طالب : إنه يخاف أن تُؤلَّى
غيره ، إذا لم يعرض نفسه عليها .
ولكنَّ محمدًا أبى أن يعرض نفسه ، فما كان
يُحبُّ أن يُكلِّم أحدا في أن يفعل له شيئا .

ذهب أبو طالب إلى خديجة ، وقال لها :
 - هل لك أن تستأجري محمدا .
 فقالت له خديجة :

- لو سألت ذاك لبعيد بغض لفعلنا ، فكيف وقد
 سألت لحبيب قريب ؟
 وأرسلت خديجة إلى محمد ، فلما جاءها ، قالت
 له :

- إني دعاني إلى أن أرسل إليك ، ما بلغني من
 صدق حديثك ، وعظم أمانتك ، وكرم أخلاقك ،
 وأنا أعطيك ضعفا ما أعطى رجلا من قومك .
 وقبل محمد أن يعمل في تجارة خديجة ، وقابل عمه
 أبا طالب ، وذكر له ذلك ، فقال له عمه :

— إن هذا الرِّزْقُ ساقه الله إليك .

٣

تأهب محمدٌ للخروج في تجارة خديجة ، مع عبدها
ميسرة ، فجاء أعمامه يودِّعونَه ، ويوصُّون به
الرُّجال . كانت هذه أوَّلَ مَرَّةٍ يخرجُ فيها وحده .
وسارت القافلة لياليَ وأياما ، ومحمدٌ وميسرةُ
يتحدَّثان ، فيعجبُ ميسرةُ بحديثِ محمد ، وحسنِ
أخلاقه ، وكانت الأيامُ تزيدُه قُرْبًا من نفسه .

ووصلتِ القافلةُ إلى سُوقِ بُصْرَى ، فراح محمدٌ
وميسرةُ يبيعان تجارة خديجة ، فكان بين رجل وبين
محمد ، اختلافٌ في سلعة ، فقال له الرجل :

— احلف بالآلاتِ والعزَى .

فقال محمد :

- ما حَلَفْتُ بهما قَطَّ .

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي دَهَشٍ ،
فَالْعَرَبُ جَمِيعًا يَحْلِفُونَ بِهِمَا :

- الْقَوْلُ قَوْلُكَ .

لَمْ يَعَارِضِ الرَّجُلُ مُحَمَّدًا ، لِأَنَّهُ قَطَنَ إِلَى أَنَّهُ يَخْتَلِفُ
عَنْ هَؤُلَاءِ التُّجَّارِ الَّذِينَ يَحْلِفُونَ بِالْأَصْنَامِ ، وَيَكْذِبُونَ
فِي قَسَمِهِمْ .

بَاعَ الرِّجَالُ مَا مَعَهُمْ ، وَقَدْ رَبِحُوا رِبْحًا عَظِيمًا ،
فَجَاءَ مَيْسِرَةٌ إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَقَالَ لَهُ وَهُوَ فَرِحَانٌ :

- يَا مُحَمَّدُ ، أَتَجَرُّنَا لَخْدِيحَةٍ سَنِينَ ، فَمَا رَبِحْنَا رِبْحًا
قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا الرِّبْحِ عَلَى وَجْهِكَ .

وقفت خديجة في غرفة عالية تنتظر ، فرأت الجمال والحمير والبغال قادمة من بعيد ، وقد ارتفع غبارها ، فعرفت أن قوافلها عائدة من الشام ، فقد حان وقت عودتها .

كانت القوافل القادمة هي قوافل خديجة ، يسير في مقدمها محمد وميسرة ، فالتفت ميسرة إلى محمد وقال :

- هل لك أن تسبقني إلى خديجة ، فتخبرها بما صنع الله تعالى على وجهك ؟

فتقدم محمد ، وكان الوقت ظهرا وخديجة واقفة في غرفتها تنظر ، فلما رآته وهو راكب على جملة عرفته ، فاستعدت لاستقباله .

دخَلَ مُحَمَّدٌ عَلَيْهَا وَسِيمًا جَمِيلًا ، وَرَاحَ يَقْصُ
عَلَيْهَا مَا فَعَلَهُ فِي الرَّحْلَةِ ، وَيُخْبِرُهَا بِمَا رَجَعُوا ،
فَتَصْغِي إِلَيْهِ وَهِيَ مُنْشِرِحَةٌ ، تُحَسُّ قَلْبَهَا يَتَفَتَّحُ لَهُ .
وَلَمَّا انْتَهَى مِنْ حَدِيثِهِ ، قَالَتْ لَهُ :

- أَيْنَ مَيْسِرَةٌ ؟

فَقَالَ مُحَمَّدٌ :

- خَلَفْتُهُ فِي الصَّخْرَاءِ .

فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةٌ :

- عَجَّلْ إِلَيْهِ ، لِيَعَجَّلَ بِالْإِقْبَالِ .

أَخْبَرَهَا مُحَمَّدٌ بِمَا رَجَعَتْ ، وَهُوَ ضِعْفُ مَا كَانَتْ
تَرْبِحُ ؛ لَمْ تَكُنْ تُرِيدُ مَيْسِرَةً لِتَسْمَعَ مِنْهُ أَخْبَارَ
التَّجَارَةِ ، بَلْ كَانَتْ تُرِيدُهُ لِيَقْصَّ عَلَيْهَا أَخْبَارَ مُحَمَّدٍ ،
وَمَا فَعَلَهُ فِي رَحْلَتِهِ . ؟

كَانَتْ خَدِيجَةُ فِي الْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهَا ، وَكَانَ
النَّاسُ يَدْعُونَهَا « بِالطَّاهِرَةِ » ، وَ « سَيِّدَةَ قُرَيْشٍ » ،
وَكَانَتْ جَمِيلَةً ، بَيَضَاءَ ثَمِيلٍ إِلَى السَّوْمَنِ ، وَكَانَ
شَعْرُهَا أَسْوَدَ نَاعِمًا ، وَعَيْنَاهَا وَاسِعَتَيْنِ ، عَرَضَ
عَلَيْهَا أَشْرَافُ قُرَيْشٍ أَنْ يَتَزَوَّجُوها فَرَفَضْتَهُمْ ، لِأَنَّهَا
لَمْ تَحْذَ فِيهِمْ رَجُلًا كُفْنَا لها ، وَلَكِنها لَمَّا رَأَتْ مُحَمَّدًا
أَحَبَّهُ ، وَفَكَّرَتْ فِي أَنْ تَتَزَوَّجَهُ ، وَلَكِنْ كَيْفَ تَفَاتِحُهُ
فِي هَذَا الْأَمْرِ ؟

كَانَ مُحَمَّدٌ وَمَيْسِرَةٌ يَخْرُجَانِ مَعًا فِي تِجَارَتِهَا ،
فَتَوَطَّطَتْ بَيْنَهُمَا الصَّدَاقَةُ ، فَرَأَتْ خَدِيجَةُ أَنْ تُرْسَلَ
إِلَيْهِ مَيْسِرَةٌ ، يَفَاتِحُهُ فِي أَمْرِ زَوَاجِهَا ، فَجَاءَ مَيْسِرَةٌ
إِلَى مُحَمَّدٍ ، وَقَالَ لَهُ :

— يَا مُحَمَّدُ ، مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ

فقال له محمد :

- ما بيدى ما أتزوج به

فقال له ميسرة :

- وإن كُفيتَ ذلك ، ودُعيتَ إلى المال والجمال ،
والشرف والكفاية ، ألا تُحيب ؟

قال له محمد :

- فمن هي ؟

قال ميسرة :

- خديجة .

فقال محمد ، وهو لا يكادُ يُصدّق :

- وكيف لى بذلك ؟ !

فقال له ميسرة :

- أنا أفعل !!

ذكر ميسرة خديجة أنه كلم محمدا في أمر زواجه
 منها ، وأنه رحب بهذا الزواج ، فرضيت خديجة ،
 وأرسلت إلى محمد :

— يا بن عم ، إنى قد رغبت فيك لقرايتك ،
 وشرفك فى قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ،
 وصدق حديثك .

كانت خديجة قريبة محمدا ؛ كان قصي جده
 وجدها .

واتفقت معه على ساعة يأتى فيها مع أعمامه ،
 ليتم الزواج ، وفى الساعة التى جعلت موعدا ، جاء
 محمد وعمه أبو طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ،
 وأشراف قريش ، ودخلوا فرحدا وأهل خديجة
 ينتظرونهم .

قام أبو طالب ، وقال :

— إِنَّ ابْنَ أَخِي هَذَا ، مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، لَا يُوزَنُ
بِهِ رَجُلٌ إِلَّا رَجَحَ بِهِ شَرْفًا وَنُبْلًا ، وَفَضْلًا وَعَقْلًا ،
وَإِنْ كَانَ فِي الْمَالِ قِلٌّ ، فَإِنَّ الْمَالَ ظِلٌّ زَائِلٌ ، وَقَدْ
خُطِبَ إِلَيْكُمْ رَغْبَةً فِي كَرِيمَتِكُمْ خَدِيجَةٌ .

فقام ورقة بن نوفل — وكان قريب خديجة —

وقال :

— اشْهَدُوا عَلَيَّ مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ ، أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُ
خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ ، مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .

فقال أبو طالب ، لأنه كان يُريد أن يسمع القبول

من أقرب رجل إليها :

— قَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ يَشْرَكَكَ عَمُّهَا .

فقام عمُّها ، وقال :

— اشْهَدُوا عَلَيَّ مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ ، أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُ

خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ ، مِنْ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ .

وقام الرجال إلى الوليمة التي أعدها محمد ،
وأمرت خديجة جواريتها أن يرقصن ويضربن
بالدُّفوف . وتم زواج محمد الأمين ، بخديجة الطاهرة ،
سيدة قريش .

٨

واتفقت قريش على تجديد الكعبة ، فجمعت
القبائل من قريش الحجارة لبنائها - كل قبيلة تجمع
على حدة - ثم بنوها ، حتى بلغ البنيان موضع
الحجر الأسود ، فاختلفوا : كانت كل قبيلة تريد أن
يكون لها شرف وضعه ، وزاد الاختلاف حتى
استعدت القبائل للقتال .

واجتمع أشراف قريش في الحرم ، وراحوا
يتشاورون فيما يفعلونه ، حتى لا تقوم الحرب
بينهم ، فقال رجل منهم :

- يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون
فيه أول من يدخل من باب المسجد ، يقضى بينكم
فيه .

فقبلوا وانتظروا أول من يدخل ، فكان أول من
دخل محمد بن عبد الله ، فصاحوا فرحين :

- هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد .

وأخبروه الخبر ، فقال :

- هلم (هاتوا) إلى ثوبا .

فجاءوا بثوب ، فأخذ محمد الحجر الأسود ،
فوضعه في الثوب بيده ، ثم قال :

- لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه

جميعا .

فَأَخَذَتْ كُلُّ قَبِيلَةٍ بِنَاحِيَةٍ مِنْ زَوَايَا الشُّوْبِ ،
وَرَفَعُوهُ بَيْنَهُمْ ، حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ مَوْضِعَهُ رَفَعَهُ ،
وَوَضَعَهُ بِيَدِهِ ، وَبَنَى عَلَيْهِ .

رَضِيتُ قِبَائِلُ قُرَيْشٍ بِمَا فَعَلَ ، أَشْرَكَهُمْ جَمِيعًا فِي
شَرَفِ رَفْعِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ ، دُونَ حَرْبٍ أَوْ قِتَالٍ ،
وَنَجَّاهُمْ بِرَجَاحَةِ عَقْلِهِ مِنْ شَرِّ مُسْتَطِيرٍ ، فَقَدْ كَانَتْ
الْحُرُوبُ تَنْشِبُ لِأَتْفِهِ الْأَسْبَابُ .